وأولئك هم المفلحون

تقديم وتحية للعزيزين عبد الحليم عويس ووليد كسَّاب

بقلم: أ.د/ سعد عبد العزيز مصلوح

أستفتح قولي بحمد الله، وأثنِّي بالصلاة وزكيِّ التسليم علىٰ رسوله ومصطفاه، وأسأله الرضا عن أصحابه وآل بيته ومن تبع هداه. ثم أمَّا بعد؛

فالشكر واجب لأخي وصديقي الأستاذ وليد كسَّاب مصنف هذه الرسالة النفيسة؛ إذ أنزلني في هذا المقام الكريم لنقضي بعض ما وجب علينا لعزيز فقدناه، وهمُّك به من عالم عامل، كان بيننا ملء السمع والبصر والفؤادِ. ولقد قرأت الرسالة منجَّمة قبل أن تصير إلىٰ ضُمامة بين دفتين، فإذا هي سِفرٌ وفيٌّ وافٍ، أشهدني بعين البصر والبصيرة أخي وحُبَيِّبَ نفسي عبد الحليم عويس في مرائي حياته المختلفة؛ طالب علم وزوجًا وأبًا وعالمًا مستحصدًا، روَّاحًا وغدَّاءً في مجامع الخير، مناقشًا ومحاورًا ومجادلا، صادق الرعاية والحفاية بتلاميذه ومريديه، سمحًا خفيض الجناح لرفاقه ومشايخه وأصحاب الحقوق عليه.

بلىٰ! رأيته مَشْهَدَ صدق، وما كذب الفؤاد ما رأىٰ. إنه هو علىٰ ما كان منذ عرفته أمدًا يهدف إلىٰ خمسة العقود، إلىٰ أن أراد الله جوارًا أكرم من جوارنا، ورفقة خيرًا من رفقتنا.

سبقتُهُ- رحمه الله- إلىٰ دار العلوم بأعوام قلال، فكنت معيدًا إذ كان يخطو خطواته الأولىٰ في أول أعوام الطلب. وانقضىٰ العام والعام لا نتراءىٰ ولا نتخاطف الحديث إلا بما تتيحه سوانح الفرص علىٰ غير قصد ولا عمد.

وما كان ذُرُورُ ثالث أعوام الطلب حتىٰ كان عبد الحليم بين أبناء الدار قيدَ الأبصار ومستجرَّ الحديث، ولاحت شواهد منبئات علىٰ خبيء ما تضمره له الأيام من عطايا ربه الجسام ومنائحه السنية. لقد كان -رحمه الله- يعرف ما يريد، واتخذ العدة درسًا وقراءة وتمثُّلا، وحمل نفسه علىٰ الصعب جهادًا واجتهادًا حتىٰ يتم الرسالة التي ادخره الله لها. ولم تخل أيامه ومواقفه الأولىٰ من ثورة وفورة وجماح هذبتها التجارب والدروس في ما بعد.

أذكر في خواتيم عشر الستينيات من القرن الماضي أنِّي لزمتُ الفراش ذاتَ مرضٍ، وجاء عبد الحليم يعودني فوجد عندي نفرًا من الأصدقاء كانوا طرائق قددًا في شؤون الفكر والسياسة علىٰ غير تعارف سبق. وما إن تنفَّست الماركسية علىٰ لسان أحدهم حتىٰ كان -غير مُحْتَسِب- رميَّةً لمقاذيف عبد الحليم، وإذا هما يتكايلان وينتشبان، ولأيًا ما سكنت النفوس وباخ العجيجُ والضجيج. كذلكم كان أمر عبد الحليم في مطالع الالتزام. بيد أن قارئ كتاب عزيزنا الأستاذ وليد بن كسَّاب -وهو الذي صحب الراحل العظيم في الحقبة الأخيرة من العمر- مستطيعٌ أن يستبين لنفسه فِعْلَ التجربة في هذه الشخصية الفاذَّة المُسْتَأحِدة؛ فلقد سجا طبعُهُ علىٰ قدر ظاهر من الرِّكزة والتلبُّث، ثم

ثم نَحَا بِهِ إلىٰ فهم حصيف للبشر، وإدراكٍ واعٍ لقواعد المعاملة والجدل أَفَازَتْهُ بالسهم الربيح في كثير من المواقف، وما كان منه ذلك عن تحوُّلٍ أو تأوُّل؛ بل ظل في ذات عقله وذات صدره علىٰ نحِيزَتِهِ الفكرية الأصيلة حتىٰ غَدَا بما وفقه الله إليه من الجد والجهاد والاجتهاد فارهًا في العلم، وفَرَقَ بكتاباته النيِّرة المخلصة بحور التاريخ وفلسفة الحضارة، جامعًا إلىٰ سلامة القلب وطيب المحاسنة وصفاء النفس من كل كُدُورة حَزَامَةً وصَرَامَةً في العمل بلغ بهما رتبة عصيَّة الإدراك، ومنزلةً لا تُنال بالتشهِّي.

وإذا تحولنا بالحديث من العام إلىٰ الخاص فإني أتحيَّن هذه السانحة لأعالن الأحباء من القرَّاء أن لعبد الحليم عليَّ من الأيادي ما أعدُّ منه ولا أُعدِّده. ولعل سنام أياديه عندي أن الله وصل علىٰ يديه أسبابي بعدد من أولي الفضل والسعة والسابقة في الجهاد يقدمهم الراحلان الكريمان الأستاذ عمر التلمساني والأستاذ صلاح شادي، والأستاذ الدكتور جمال عطية أطال الله في النعمة بقاءه. وكم ضمتنا غدوات وأمسيات في سكنه المعمور بحلوان والعجوزة، وحسبي بذلك من فضل أختبئه له عند الله، والله عنده حسن الثواب.

ذلكم هو عبد الحليم عويس متعلمًا وعالمًا ومجاهدًا في الله، ومنافحًا عن دينه وتاريخ أمته وحضارة الإسلام، أما سخاؤه وجوده ورعايته لطلاب العلم وذوي العيلة من شتىٰ الأعراق والأجناس فقد تكفل أخي الوليد –بحكم صحبته إياه مُلاوة طيبة من حياته المباركة– بالإبانة عنه أحسن بيان. وإذا كنت قد طويت السنين القهقرىٰ لأكشف

اللثام عن أولية الراحل العظيم فما كان ذلك مني إلا لأقول: هكذا كان عبد الحليم عويس من شبابه الباكر ، وقد توفاه الله وهو علىٰ ما عليه كان؛ مُحَمّدِيّ القدوة والأسوة، يعطي عطاء من لا يخاف الفقر. وما ذكرته خاليًا أو في ملأ إلا أُحْضِرْتُ القولَ الكريمَ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر] . وإني لأحسبه– إن شاء الله– ممن وقاهم الله شح نفوسهم، ومن أولئك الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند الله فكتب الله لهم بذلك الفلاح.

ولقد كان أخي وشُقيِّق نفسي أبو أحمد عبد الحليم عويس صاحب كرامة، ولعل من كراماته هذه الرسالة التي خطَّها أبو خالد وليد بن كسَّاب بيمينه المباركة، فَأَنْعِمْ به تلميذًا ومريدًا قضىٰ لشيخه حق الوفاء، وجعل من رسالته هذه الحجة البالغة علىٰ أن خدمة العلم، والجهاد في الحقِّ، وبذل النفقة في سبيل الله غير مصحوبة بمَنٍّ، ولا مشوبة بأذىٰ، وحسن السيرة بين العباد هي أمور في إمكان كل أحد لمن شاء من الناس أن يتخذ إلىٰ ربه سبيلا.

رحم الله أبا أحمد، وجزىٰ أبا خالد عن شيخه وعن صدق الوفاء وعنَّا نحن القرَّاء المعجبين بحسن صنيعه– خيرًا، ولنِعم أجر العاملين.

سعد بن عبد العزيز مصلوح
الكويت
في يوم الجمعة
العشرين من صفر الخير 1436 **هجرية**
الثاني عشر من ديسمبر 2014 **للميلاد**

تاريخ من الذكريات: يعيد النور للشموس الغائبة

تقديم: أ.د/ خالد فهمي

كلية الآداب – جامعة المنوفية

1) مدخل: وتبقىٰ الذكريات:

تبقىٰ الذكريات مع توافر مصادر المعرفة، زادًا عقليًا ووجدانيًا بامتياز؛ لأنها مجمع أفكار عُجنت بذوب فيض من المشاعر. وكلما كانت هذه الذكريات وليدة الأحاسيس الإنسانية الدافئة المتدفقة كانت مؤثرة، ومعلِّمة، وهادية، ومحفزة.

من أجل ذلك يكون الفرح الذي يعمر النفس، ويسكب في القلب الطمأنينة، ويشيع في الحنايا البهجة الآمنة.

وأجلُّ الذكريات منزلة تلك التي تفيض بها النفوس النبيلة بغير دافع إلا من دافع الوفاء، والمروءة، وحسن العهد، والامتنان، والشعور الجارف بالمحبة لمن رحلوا وكانوا شموسًا تنير الدروب، وأقمارًا تبدد ظلمة الليالي، وتهدي في مسارب الحياة.

ثمة إقبال ظاهر علىٰ كتابات السيرة الذاتية تغازل الفطرة الإنسانية في نزوعها الطبيعي إلىٰ الأنس بالحكي، وتزداد الظاهرة، وتتكاثف أماراتها، وتتراكم علاماتها بزيادة جرعات الحكي، وتنوعه، واتخاذه مسارات كثيرة تغذي العقل والروح معًا.

2) كتاب المريد: المادة، والانتماء المعرفي، والرمز.

(2-1): يضم كتاب المريد.. في صحبة عبد الحليم عويس للصديق العزيز الأستاذ وليد عبد الماجد كسَّاب عددا كبيرا من الفصول في صورة حلقات تبدو مستقلة في التشكيل الطباعي، ولكنها تمثل لحمةً متماسكة، وكيانات مترابطة، منها: من هنا نبدأ، البحث عن إنسان، أصحاب علي، ديكتاتوريته التي أحببتها، معارك مولانا، عريس رغم أنفي، القطيعتان، رحمه الله كما أحبني، المنتهىٰ.

وهذا الكتاب صالح لأن ينتمي إلىٰ مجالات معرفية متعددة، وهي كثيرة، والغرض من تشقيق الكلام فيها، وتوسعته من أجل استثمارها من القارئين الكرام.

(2-2) الكتاب ينتمي إلىٰ أدب السيرة الذاتية بحكم ما تضمنه من ذكريات مع الدكتور عبد الحليم عويس – أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية- وهي ذكريات طالت مناطق مختلفة من الحياة، وتوزعت علىٰ الشئون الاجتماعية والعلمية والإنسانية.

(2-2- أ) الكتاب ينتمي إلىٰ فرع تحليل التصرفات، وهو فرع من علم حديث نسبيًا يتعلق بالتحليل النقدي للخطاب.

(2-2- ب) الكتاب ينتمي إلىٰ مجال دراسة النماذج البشرية بحكم ما تضمنه من عرض عدد كبير من الشخصيات، ورسم (بورتريهات) أو صور لهذه النماذج البشرية الحيوية.

(2-2- ت) الكتاب ينتمي إلىٰ التاريخ الاجتماعي، ويعكس نمطا من العلاقات بين جيلين: جيل العلماء الآباء الذين يمثلهم الدكتور عبد الحليم عويس، وجيل التلاميذ الأبناء الذين يمثلهم وليد كسَّاب.

وهو مثمر جدا في رصد نمط العلاقات الإنسانية بين نوعي هذين الجيلين بعد أن استغل الوضع الراهن في علاقات أبناء كل فريق من الفريقين في الوقت الراهن بفعل عوامل دمرت كثيرا من العلاقات.

(2-2- ث) الكتاب ينتمي إلىٰ الأخلاق العملية، وذلك أنه يعطي مثالا حيًا وجيدًا للوفاء الجميل الذي حمل وليد علىٰ الاعتراف بفضل شيخه الكريم عبد الحليم عويس.

(2-3) إن استعمال الكاتب لتعبير «**المريد**» يعيد التذكير بتيمة أو موضوع شائع في تراث التأليف الأدبي في الحضارة العربية، وهو ما يعني الاتصال الإيجابي بالتراث العربي من جانب صاحبي السيرة هذه، وينقلنا إلىٰ أبعاد صوفية راقية.

والتعبير له علاقة وارتباط بالرومانسية أو الاتجاه الوجداني بأبعاده الإنسانية الدافئة التي تصور العلاقة بين التلميذ وأستاذه.

(2-4) ملاحظات نقدية علىٰ ما سبق:

إن فحص ما كتبه وليد كسَّاب في هذا السِّفْر اللطيف يدل علىٰ مجموعة مهمة من الخصائص الدالة علىٰ ثقافته وشخصيته، غير أن ثمة ملاحظات ينبغي الإشارة إليها، وإليك بعضها:

أولًا: استعمل وليد كسَّاب بعضًا من عناوين الكتب الشائعة الذائعة الصيت في الثقافة الإسلامية المعاصرة في عدد من عنوانات فصول كتابه هذا من مثل: «**من هنا نبدأ**» وهو كتاب شهير للأستاذ خالد محمد خالد رحمه الله.

ثانيًا: غياب التأريخ الدقيق لحادثات هذه السيرة، وهو أمرٌ مهمٌ جدًا يسهم في تجويد العائد من استثمار هذه الحكايات.

ثالثًا: تمثل العتبات التي وضعها وليد كساب مداخل إيضاحية مهمة جدًا نحو قراءة الكتاب، ذلك أنها في الغالب نصوص مختارة من كلام الشيخ، يمكن أن تكون مفاتيح مركزة لفهم عبد الحليم عويس، وهي من الملاحظ الإيجابية التي أحسن وليد كساب بإضافتها.

3- المريد: مقال في خطاب الوظائف

لعل أهمية هذا الكتاب الذي كتبه وليد كسَّاب مستصحبًا روحه الوفية، ونفسه الجميلة في حاجة إلىٰ تحليل خطاب الوظائف المرجو منه خدمتها.

وهي وظائف كثيرة ومهمة في الوقت نفسه، وفيما يلي محاولة للكشف عن مجموعة مما يلوح منها:

[3-1] الوظيفة التاريخية:

يقدم هذا الكتاب بعضًا من المعلومات التي تسهم في إضاءة مرحلة تاريخية مهمة في الثقافة العربية المعاصرة علىٰ مستويات متعددة تشتبك مع المناطق التالية:

1- التاريخ الاجتماعي لعلاقات جيل الأساتذة بجيل التلاميذ.

2- التاريخ الثقافي: وتعكسه معارك الرجل الكريم الراحل.

3- التاريخ الحركي: وتعكسه اشتباكاته مع عدد من التيارات الإسلامية.

فضلا عما تقدم، فهذه سيرة من معلومات تعيد رسم ترجمة الدكتور عبد الحليم عويس.

[3-2] الوظيفة التربوية:

إن هذه السيرة تضرب مثالا رائعًا للأستاذ القدوة المعلم، وتعطي نموذجًا طيبًا لعلاقات الصحبة والملازمة بين الأستاذ والتلميذ، وهي علاقة تستوحي تراثًا تربويًا عريقًا أسهم في تشييده التصور الإسلامي. إن الكتاب مثال حيٌ فذٌ يصور تاريخًا من أخلاق الرعاية من الشيخ للتلاميذ.

[3-3] الوظيفة الأخلاقية:

لقد أحسن وليد كسَّاب فقدم صورة حية لأستاذٍ نبيل تتجاوز حدود رعايته لطلابه المستوىٰ المعرفي/ العلمي إلىٰ الحدود الإنسانية، وهو ما انعكس في مسلك المؤلف الذي قدم بدوره نموذجًا رائعًا لأخلاق الوفاء، وردِّ الجميل، والمحبة، وحسن العهد لشيخه رحمه الله.

إن هذا الكتاب مثال ممتاز لكثير من القيم النبيلة التي تتصارع من أجل البقاء في عالم شحيح بالقيم الأصيلة.

وهو مثال ممتاز أيضًا علىٰ أن الثمرة الحلوة ناتج رعاية طيبة للبذرة التي يغرسها الشيوخ، ويتعاهدونها بالمتابعة، والإرواء، والتهذيب والتشذيب.

وليد كسَّاب اكتشاف جديد، واكتشاف حقيقي، واكتشاف يبعث علىٰ الأمل، ويولد البهجة في نفوسٍ عطشىٰ للبهجة.